

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتح من جزيرة العرب

(قصة قصيرة)

الكاتب: د. محمد بن بشر القباطي

(0060166979615)

[mhmdalqbty1@gmail.com](mailto:mhmdalqbty1@gmail.com)

حقوق الطبع لكلّ مسلم

كوالالمبور

1441/11



كلمة:

الفتاح! مَنْ الفاتح؟

إنَّه فاتح القلوب بإذن علام الغيوب!

محمدٌ عبدُ الله ورسوله صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

قضى عمره الشريف عليه الصلاة والسلام ينير القلوب! ويهدي الشعوب.

وأنتم أيها الوارثون منهجه وسراجه، ينتظر إشراقكم أربعة مليارات قلبٍ غارقٍ في بحر

الظلمات!

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى وبشرى، والصلاة والسلام على البشير النذير،  
والسراج المنير، محمد عبد الله ورسوله، وبعد، فإن القصّة فنٌّ من أقرب الفنون إلى النفوس،  
وأجمعها للعبر والعظات، وقد قصّ الله تعالى علينا أحسن القصص معنى ومبنى.

ولدى الأمة ميراث عريض من الأخبار والقصص التي تؤنس وحشتهم، وتطفئ نار  
غريبتهم، وتملأ قلوبهم فرحاً وبهجة، وتمثل جبل وصلٍ روحي وثقافي، والحاجة ماسة؛ لتجديد  
وترشيد هذا الميراث الجميل!

وقصص الأنبياء عليهم السلام لا نظير لها في الجمع بين الحكمة والرحمة، وقصّة  
الفتاح العربيّ عليه الصلاة والسلام الذي ملأ القلوب بفضل الله تعالى علماً ونوراً، وأمناً وإيماناً  
هي أعظم القصص نفعاً، ولو سار الناس على منهاجه، لذهب عن القلوب الحزن، والخوف!  
ولفتح الله علينا بركات من السماء والأرض.

إننا بحاجة إلى تجديد الأطر لإعادة إعمار الحياة والقيام بوظيفة الاستخلاف وفق  
منهاج النبوة؛ لأن منهاج النبوة هو أيسر المناهج وأصلحها؛ لاستئناف النهوض، وإن أهمّ  
خصائص منهاج النبوة في الدعوة: "الإتمام" على "بصيرة"، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي  
أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>1</sup>، وقال  
رسولنا عليه الصلاة والسلام: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)<sup>2</sup>. وأول خطوة في الطريق نبذ  
التعسير، والتنفير، والهدم، والفوضى.

وقد حرصت أن أقرب المعاني بأسلوب قصصي.  
اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علماً.  
اللهم تجاوز عن الخطأ والزلل وبارك لنا في القول والعمل، والحمد لله رب العالمين.

<sup>1</sup> سورة يوسف الآية (108)

<sup>2</sup> رواه البخاري في الأدب المفرد (273)، وابن سعد في الطبقات (1/192)، والحاكم (2/670)، وأحمد (2/381)، من حديث أبي هريرة، وانظر صحيح الجامع: (2349) (ج:1/464)، والصحيحة (45).

كتبه: د. محمد بن عبده بن محمد بن بشر القباطي

كوالامبور، 12 من ذي القعدة 1441هـ.

## فاتح من جزيرة العرب

تلقّعت الأبصار بعباءة الظلام، واسترخت على أرائكه الحانية، وكان الظلام حارسًا جدّ أمين على بوابة القلب يحمي السكينة حين تنزّل، يحتجز خلف أسواره ضجيج الأضواء؛ كي لا يعكّر صفو البصائر، قمت وقت نزول العليّ العظيم، وجّهت وجهي إليه، وأسندت ظهري إلى مطلع الشمس، جامعًا مغارب الأرض بين يديّ، جعلت مكة تلقاء وجهي.

ربّاه، أرى سحب رحمتك تغمر الأرض، تذللّها للسائرين، تمدّ جبال الرجاء والعطاء للعائرين. يداك مبسوطتان بالمغفرة، تنادي نداء جليلاً، ما أجمله! هل من مستغفر -يا عبادي- فأغفر له؟ ربّنا، مسّنا الضرّ، وأنت أرحم الراحمين، نبوء لك بنعمتك علينا، ونبوء بذنوبنا فاغفر لنا، وأبحرت فيها، فسالّت أودية بقدرها، واتسع القلب؛ ليستوعب الأرض، واحتمل السيل زبدًا رايبًا، كان الليل يصبّ ما تبقى من رحيق لطائفه في حياض السحر، والقلوب تغترف في خشوع من عطاء الذي فطر السماوات والأرض، ولما فرغت، ودّعَتْ ناشئة الليل: السلام عليكم ورحمة الله ( ذات اليمين وذات الشمال)، رفعت أصبعي نحو السماء، وقلت: سبحان الملك القدوس (ثلاثًا)، والقلب متصل بالسماء.

أشرفت من النافذة المطلّة على شطر "كوالالمبور". كان وجه المدينة مسجّى بخيوط غرايب سود، لم تعد الطائرات تُلوّح لي رائحة غادية في فضاء المدينة! وكان نبض المدينة مجهّدًا تحت وطأة الكرب! كان "الحجر" قد استنزف صبر المساكن، وسلب الأسواق أنفاسها، ومنع المساجد أن تستضيف زوّارها، وضائق الأرض على أهلها بما رحبت، وضائق على الناس أنفسهم.

أرى الليل يمضي ذلّولًا، وقد أطبق الصمت أجفانه، وأخذ طائر الكُوَيْل (koel)<sup>1</sup> يردّد تسييحاته مثني وثلاث ورباع، يلل بها نسيمات السحر! كان الصوت ودودًا يملأ النفس أنسًا.

---

<sup>1</sup> [https://www.youtube.com/watch?v=dE\\_X-qQD1AI](https://www.youtube.com/watch?v=dE_X-qQD1AI)

أبحرت الروح في الملكوت الفسيح حيث تشاء. وإذا بي أسمع قرعًا لطيفًا. قمت مرتاعًا، وقلت: اللهم طارقًا يطرق بخيرٍ، وسارعت لاستقباله، من الطارق؟ قال: أبو الخير، سلامًا، أبا عمر، قلت: سلامٌ، أبا الخير! كان الأنس يملأ عينيه، والوقار يشعّ من وجهه، جلسنا أمام الشرفة، وقال: هل لك أن تسري في الملكوت؛ لترى ما طوته الحجب، قلت: أبا الخير! كيف؟ والأرض من حولنا مؤصدة، قد حُجر على أهلها، أيّ طريق سنسلك، والوباء يتخطّف الناس من حولنا، وما هي المثلاث بين يديك، فهل إلى دفعها من سبيل؟ قال: هلمّ، فتدلى إلينا "نجم"، ثمّ دنى، مدّ إلينا بساطًا كقوس المطر، هبطنا على متنه، قلت: أمتطي صهوات النجوم!

انفرج مُدَحَلٌّ، أشار لتنزل، لم أكن أتبيّن الأشياء من شدة الضوء، نزلنا، إذا جنة كأجمل ما أنت راءٍ، تعجّبت، قلت: جنة في جوف "نجم"! أتحمل النجوم في بطونها جنائًا؟ انبعث من أفواه الزهور نسيم نديّ، وكانت الأشياء ألين من مناديل الحرير، وثمة أصوات خافتة تلهج بذكر الله تعالى كأنها مزامير داوود عليه السلام! وتهادت الألوان والأشكال تغمر أبصارنا بما تشتهيهِ الأنفس، سُقينا شرابًا لذيذًا طهورًا، ودخلنا المقصورة الزاهية، كانت التقنية الخضراء تُقدِّم في لمح البصر وظائفها الراقية.

هبطنا في فضاء بديع، عبرنا غشاء الزمن، إذا نحن بمستودع ضارب في الأفاق، وإذا صراطان ممدودان عن يمين وشمال، قلت: يا أبا الخير، ما هذا؟ قال: هذا مستودع الحادثات، وهذا الصراط يمتدّ في أعماق المستقبل، لكنّه مؤصد، وهذا الصراط يمتدّ في باطن الماضي إلى حيث يشاء الله، وكانت الحوادث كلّها محفوظة في أثر الزمن.

مضينا نعبّر القرون سراعًا؛ حتى بلغنا مشارف القرية عند طلوع الشمس، كانت الجبال تحتضنها بحنان، وكانت روحها مشحونة بالأسى، تكاد تفتّط من فوقها، وأطرافها حيث يقطن الفقراء والضعفاء شاحبة منهكة، وكانت منازل المترفين غارقة في السرف والخيلاء، وفي وسط القرية يجثو معبد موحش تُصْبه كروؤوس الشياطين.

أخذت البيوت تلفظ ما في بطونها، خرج القوم سراعًا يوفضون إلى نُصْبهم، وأقبلوا على أوثانهم صمًا، وبكمًا، وعميًا لا يعقلون.

جثوا حول أصنامهم، فريق يدعو "وُدًا"؛ ليرزقه البنين، ورهط باسط كفيه إلى "سُوع"؛ ليقضي دينه، وجمع يسأل "يغوٲ" أن يعجل الغيث، فقد هلك الزرع والضرع، وثلة تناشد "يعوق" أن يشفيها، فقد أضناها المرض، ونفرٌ يستجدي "نسرًا" أن يعيد إليه دوائه الضالة! وكانت الأصنام عنهم غافلة، لا تسمع أحدًا ولا تبصر، ولا تنفع داعيًا ولا تضر، والقوم من حولها كالأنعام بل هم أضلّ، ثم انصرفوا يضربون في أرض الله يبتغون الرزق.

ثم فتحت الدورُ العالية أبوابها في الضحى عن وجوه تطفح بالإفك، وعيون تقذف بزبد الاستكبار والازدراء، انسلّ منها الأكابر يسحبون ذيول الإثم والعدوان، فيتمموا شطر ناديمهم؛ وقد مكروا مكراً كبارًا، ويبتوا منكرًا من القول وزورًا. وبينما القوم في سفههم، والأرض تكاد تميز من الغيظ، إذ طلع رجل جليل، يسير على الأرض هونًا، تحقه المهابة، فنادى: يا قوم، إني أدعوكم إلى نعيم مقيم، والنجاة من عذاب أليم!

يا قوم، ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا \* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا \* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا \* مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا \* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾<sup>1</sup>، فحاص القوم حيصة الخمر، وجعلوا أصابعهم في آذانهم من صواعقه، واستغشوا ثيابهم خشية أن تخطفهم بروق حجته، وقد امتطت الشياطين رقابهم، وأخذت تنخسهم نخسًا، وتؤرّهم أرًا، ثم فكّر كبير المجرمين وقدّر، وقال: يا نوح، ما لنا والاستغفار، وما بنا إلى دعوتك من افتقار، ولقد أمهلناك ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يزدك حلمنا إلا جهالة، ولم تزد بإعراضنا إلا ضلالة، وقد جادلت فأكثر، وعفونا عنك فأصررت، سويت بين الأكابر والأصاغر، والأفاضل والأراذل، وفتنت الضعفاء والسفهاء، فاعتديت وتماديت، ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾<sup>2</sup>، وإنا عليك لمقتدرون! فصاح المستكبرون جميعًا: لتكوننّ من

<sup>1</sup> سورة نوح الآيات (10-14)

<sup>2</sup> سورة الشعراء الآية (116)



المرجومين، لتكوننّ من المرجومين، فذهب بهم الفجور والغرور كلّ مذهب، وأخذت صيحتهم أفئدة أصحاب نوح -عليه السلام- ففزعوا وجزعوا، وأوجسوا في نفوسهم خيفة.

فانبعث نوح -عليه السلام- ونادى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾<sup>1</sup>، فبهتوا، وتولّوا عنه مدبرين.

وقام يناجي ربه، ويشكو إليه بغي قومه، وقد استيأس، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ \* فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>2</sup>.

وأشرقت الشمس على نبا عظيم، "إنهم مغرقون"، وخرج القوم إلى أصنامهم يوفضون. ولما أقبل المستكبرون على ناديهم، لم يجدوا لنوح -عليه السلام- أثرًا! ففرحوا وغمرتهم نشوة النصر على تخوّف.

وشاع في القرية أن نوحًا -عليه السلام- أصبح نجارًا، فازداد القوم المجرمون عتوًا واستكبارًا، ولما بدأ نوح -عليه السلام- بصناعة الفلك من الألواح، والدُّسُر، سخر منه قومه، وقالوا: يا نوح، لم تصنع سفينة وليس ها هنا بحر ولا نهر؟ أما علمت أن السفن لا تجري على اليبس! ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ \* فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾<sup>3</sup>.

وفار التّور، فبادر نوح -عليه السلام- وأصحابه إلى السفينة، باسم الله، ثم فتحت أبواب السماء بماء منهمر، وتفجّرت الأرض عيونًا، وأخذ الماء يتلّع القرية شيئًا فشيئًا، ويزدرد المنازل بما فيها، وأسروا الندامة، والسفينة تجري آمنة بنوح -عليه السلام- ومن معه، وابتدر الأقوياء الجبال، لا يلوي أحد على أحد، يفرّ المرء من أمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ما أحد بمصرخ أحدًا! ولما أدركهم الغرق، وطمر آهتهم، رفعوا أيديهم إلى ربّ العالمين مستغفرين،

<sup>1</sup> سورة يونس الآية (71)

<sup>2</sup> سورة الشعراء الآيتان (117-118)

<sup>3</sup> سورة هود الآيتان (38-39)

واعترفوا بذنوبهم وتفريطهم، واستغاثوا، ولات حين غوث، وتلاطمت الأمواج كالجبال، فلا تذر  
حيًا أنت عليه إلا قذفته في قاع سحيق.

وإذا رجل جلد في معزل يشتدّ صعودًا، والموج يلاحقه، فأبصره نوح -عليه السلام-  
والرجل في كرب عظيم، فجاشت في قلبه -عليه السلام- الرحمة، فناداه: "يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا"،  
وكادت قلوب أصحاب السفينة تبلغ الحناجر، والسفينة تدنو وتنفو، لكن الابن مضى، ولم  
يلتفت، ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ  
رَحِمَ﴾<sup>1</sup>، كانت فرصة النجاة عجولة، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾<sup>2</sup>، والتقمه  
الماء، وكانت الأحداث تتزاحم مثقلة بالعظام، والمشاهد تعجز عن حملها الراسيات.

طوى الطوفان بأمر ربّه آثار المستكبرين، وطهر الأرض من رجسهم، ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ  
ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ  
الظَّالِمِينَ﴾<sup>3</sup>، وهبط نوح -عليه السلام- ومن معه بسلام من الله وبركات.

انقلبنا من ديار قوم نوح -عليه السلام- وقد افتتحت الحياة الجديدة مسيرتها بذكر الله  
العزیز الغفار، وليس على الأرض من الكافرين ديار، اجتزنا القرون المديدة؛ حتى بلغنا مشارف  
الأحقاف، حيث خلفاء قوم نوح -عليه السلام- وقفنا على قرية تأكل القرى، قد ازيّنت  
وأخذت زخرفها، وكانت الأبراج، والقصور، والحصون البديعة منشورة فوق أكتافها، وكانت  
الوديان والسهول عامرة بالجنات، والعيون، والأنعام، وكانت القرية مشحونة بالخيام ذات  
العماد الرفيعة، متخمة بالنعيم والاستكبار.

ولما أرسلت الشمس طلائع نورها، هاجت الحياة فتية؛ لاستقبالها، وانبعث من الخيام  
عمالقة كالجبال، كأن أجسامهم منسوجة من حديد، قد ملئت قوة، وبأسًا، وجَلَدًا، انطلقوا  
في شؤونهم: كبارهم، وصغارهم، رجالهم، ونسائهم، فلا تكاد ترى شيئًا ساكنًا، كل شيء يدور  
حولهم، ولما كادت الشمس أن تبلغ كبد السماء، تجمّع أكابر القوم في ناديهم، وجيء بجفانٍ

<sup>1</sup> سورة هود الآية (43)

<sup>2</sup> سورة هود الآية (43)

<sup>3</sup> سورة هود الآية (44)

كالجواب تفهق، فشرعوا يأكلون أكلاً لهما، ثم رفعت الجفان خاوية، ثم جيء بأصناف الأشرية، ومضوا في الحديث الذي شغل بال البلدة.

وبينما في غيهم يعمهون إذ طلع عليهم رجل عظيم الحلقة، مهيب المنظر، قد جلّله الوقار، فارتاع القوم لمطلعه، وأقبلوا عليه يكادون يزلقونه بأبصارهم، قال: ﴿يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾<sup>1</sup>.

﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾<sup>2</sup>؟ قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ \* قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ \* وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾<sup>3</sup>.

وإذا بعارض مظلّم قد استقبل أوديتهم. ﴿فَقَالُوا: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرِنًا﴾<sup>4</sup>، وكلّما اقترب العارض ازداد القوم استبشاراً وأشراً، فلما أحاط بهم، وأذن الله -عزّ وجلّ- باجتياحهم، إذا هم بريح صرصر عاتية، تمزّق الخيام بأمر ربّها كلّ ممزّق، وتبعث بمقتنياتهم، وأثاثهم، وهم ينظرون، ثم أخذت تشتدّ في تعذيبهم، كأنّها تنتقم منهم، فلا يقف لها شيء إلا انتزعته، وقذفت به، فبطشت بالجبابة بطشاً، تحطم رؤوسهم، وتندقّ أعناقهم، وتعقرهم في عقر ديارهم، فلا يستطيعون أن يبرحوها، فتمتصّ دفء الحياة من أجسادهم على مهل، وتعالّت أصوات المستغيثين، ولكن لا أحد يغيث أحداً، تسلّطت عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً؛ حتى أصبحوا كأعجاز نخل خاوية، لا ثرى إلا مساكنهم، ومضى هود -عليه السلام- وصحبه المستغفرون يعمرّون الحياة بنور ربهم.

طوبنا القرون سراعاً إلى خلفاء عاد؛ حتى بلغنا مدينة أمانة بدیعة، سهولها مرصّعة بالقصور، وقد نحتت جبالها بيوتاً، وكانت الوديان والسهول مكسوّة بجنات وعيون، وزروع

<sup>1</sup> سورة هود الآية (52)

<sup>2</sup> سورة فصلت الآية (15)

<sup>3</sup> سورة الشعراء الآيات (135-139)

<sup>4</sup> سورة فصلت الآية (24)

ونخل طلعها هضيم. قد ازيّنت للناظرين، وأخذت زخرفها، وظنّ المستكبرون أنهم قادرون عليها! وكان قوم ثمود يتقلبون في آلاء الله التي لا تحصى، فأراد الله أن يتمّ عليهم نعمته، ويكرمهم بنوره، ويذهب عنهم رجس الشيطان، فبعث لهم رسولاً منهم على فترة من الرسل.

انطلق صالح -عليه السلام- يحمل النور إلى قومه، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَابِعُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾<sup>1</sup>، فإذا القوم فريقان: مؤمن وكافر، فأما الذين آمنوا فاستنارت قلوبهم، وسارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة، وأما المستكبرون، فاجتالهم الشياطين، يوحون إليهم زخرف القول غروراً، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ \* مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ هَآ شَرِبْتُ وَلَكُمْ شَرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ \* وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾<sup>2</sup>، فإذا هم بناقة الله مقبلة عليهم، تبهر الأبصار، وتأسر القلوب بلطفها، وكمال خلقتها، فلما رآها المؤمنون، ازدادوا إيماناً، وأما أكابر المجرمين، فبهتوا، وزادتهم رجساً إلى رجسهم.

فعظم الأمر على أكابر المجرمين، فقال أحدهم: لقد قويت شوكة صالح بهذه الناقة، وارتفع ذكره، وكثر أنصاره، وأصبحت ناقته منارة وبرهاناً حياً يجوب المدينة يدحض حجتنا، وقال آخر: لقد فتنت أهل المدينة بأنسها، وعطفها، وكرم درها، وأصبحت حديث القوم، ناقة الله أقبلت، ناقة الله أدبرت، وصبغت حكاياتهم، فأجمعوا أمرهم فاقتلوه واقتلوها، وإن لم تفعلوا، ذهب سلطانكم، وسقط بنيانكم، فقال أشقاها: أما الناقة فأنا عاقرها.

فانبعث الشقيّ يترصدها، وهي آمنة مطمئنة تُطعم الجائع، وتروي العطشان، تتهادى ذلولاً لا تردّ يد محتاج، فتناولها بيده، فعقرها، فسقطت تبثّ حشرجاتها شاكية إلى الذي فطرها، فشاع نبأ عقرها، وصاح الناس: بأيّ ذنب عُقرت؟ وأضحت المدينة تكلّى! وحزن المؤمنون حزناً شديداً.

<sup>1</sup> سورة هود الآية (61)

<sup>2</sup> سورة الشعراء الآيات (153-156)

وقال صالح -عليه السلام- تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَأَوْجَسَ الْقَوْمُ فِي أَنْفُسِهِمْ خِيفَةً، فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ، وَأَيَقَنُوا أَنَّ الْعَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ، وَكَانَتْ سَاعَةُ الْعَذَابِ تَقْتَرِبُ، وَالْقُلُوبُ وَاجِفَةٌ، وَالْأَبْصَارُ خَاشِعَةٌ، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِينَ﴾<sup>1</sup>، ﴿فَقَتَلَكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾<sup>2</sup>، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، وَأَنْجَى اللَّهُ صَالِحًا وَصَحْبَهُ الْمُسْتَغْفِرِينَ، وَأَوْرَثَهُمُ الْأَرْضَ، وَمَتَّعَهُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى حِينٍ.

---

<sup>1</sup> سورة الأعراف الآية (78)

<sup>2</sup> سورة النمل الآية (52)

عبرنا شعاب الزمن؛ حتى دخلنا مصر، وإذا مدينة فرعون عامرة بالقصور الشاحخة المشحونة بأسباب الملك والعلو، ونهر النيل يشقّها بسكينة وسلام، انطلقنا إلى ضاحية المدينة حيث الخوف، والرعب، والفقر، والاستعباد، مضينا بين البيوت المستضعفة، فإذا الوجوه باسرة، والأعين خاشعة، والأفئدة هواء، والحوامل كأنما يُسَقَّن إلى الموت، وهنّ ينظرن، فقد صدر مرسوم "فرعونيّ" بقتل كلّ مولود ذكر من بني إسرائيل، ومن كتم وليدًا، فسوف يحاسب حسابًا عسيرًا، ويلقى ثبورًا!

مررنا بأحد الأزقة، فإذا همس مريب في بيت قريب، قيل: وُلد لهم مولود ذكر، فأوصدوا الباب؛ حتى لا يشيع الخبر، فيبلغ القوم، فيكون وليدهم أول ذبيح، قال صاحبي: ما أظنّه ناجيًا، وما أظنّ أن غلامًا من بني إسرائيل ينجو في هذه الفتنة إلا من شاء الله تعالى! لقد أحاط بهم فرعون، وبثّ فيهم أعينًا عليهم من أنفسهم.

وإذا نحن بكتيبة من المجرمين الغلاظ، قد وقفوا على بيت المولود، فصاحوا: أخرجوا الغلام، قالوا: ما عندنا من غلام، لم ينتظروا الجواب، بل اقتلعوا الباب، واقتحموا الدار، ودخل أشقاها فأخرج الغلام معلقًا من قدميه صارخًا، والأم خلفه تتوسّل إليه، ما لها من قوة ولا ناصر، تناشده: ربّك لا تذبحه، ودموعها تنهمر، خذوه عبدًا لكم، فالتفت إليها: كلّكم عبيدنا! فقال لصحبه: ادعوا أهل القرية؛ ليشهدوا مهلكه، فأقبل المستضعفون من الرجال والنساء والولدان خاشعة أبصارهم من الذلّ!

نادى: يا قومَ السوء، لقد تلطّف مولانا فرعون بكم، وأكرم مثواكم، وأمرنا باستحياء الإناث رحمة بكم، فاعرفوا قدر نعمته عليكم، واسمعوا وأطيعوا، وإياكم أن تكتموا مولودًا، فيحلّ عليكم سخطه، ثمّ حفر حفرة، والناس في ذهول، أيزبحه أم يدسّه في التراب؟ فأشار إلى زبانيته، فأشرعوا حرابًا كأنياب الشياطين، فأضجع الغلام وذبحه! فخرّت الأم على وجهها، وشخصت الوجوه إلى الحيّ القيوم، وأقبلت امرأة كبيرة تلملم جسد الوليد، وأدبر القتلة بوزرهم إلى المدينة، وكأنهم قد دحروا جيشًا غازيًا!

قلت: لقد أحسست حين قتلوا الوليد كأنما قتلوا الناس جميعًا، وكأنما خرت السماء على الأرض. ما أظفى الإنسان إذا علا في الأرض واستكبر! أي انحطاط أصاب هذه الإنسانية!

قال صاحبي: هكذا المفسدون، إذا تمكّنوا في الأرض، حتى الضعيف منهم ينقلب وحشًا كاسرًا! قلت صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾<sup>1</sup>.

قال أبو الخير: الأمر لله من قبل ومن بعد، يحكم ما يريد، وما فرعون إلا عبد من العبيد، لقد استخفّ قومه بسياسة "فرّق تسدّ"، فصرف كل طائفة فيما يريد من شؤون دولته، كما قال ربنا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾<sup>2</sup>. ولو أن اليهود جمعوا كلمتهم، وأقاموا دينهم، ما تسلّط عليهم فرعون هذا التسلّط، وما تنازع قوم، وتفرّقوا إلا ذهب قوتهم، واستعبدتهم عدوّهم، سنة الله!

غدونا مصبحين إلى شاطئ النيل، وكان الماء يجري بخشوع، وكأنه يبكي القتلى، ويسعد الثكلى، وإذا امرأتان تحملان تابوتًا فزعتين، فلما بلغتا حافة اليمّ، قذفتا التابوت في اليمّ. ومضت إحداهما تقصّه وهي تترقب، قلت: ما خطبهما؟ قال: ما أرى التابوت إلا منطويًا على سرّ جلل! هلمّ، نتعقب التابوت! وإذا غلام جميل يأسر القلوب!

قلت: من يقدر أن يؤمّن حياة هذا الغلام في هذا اليمّ؟

قال أبو الخير: إنه الله لا رادّ لما أراد، فقد قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ \* وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> سورة البقرة الآية (251)

<sup>2</sup> سورة القصص الآية (4)

<sup>3</sup> سورة القصص الآيتان (5-6)

إنه الله تعالى وحده، فقد قضى الأمر على غير ما يتوقعه بشر! ليتحول "الوليد المبارك" من البيت المستضعف إلى قصر فرعون دون واسطة جُلب أو عبودية في بيت عزيز!

**قلت:** كيف تقوى أم على أن تقذف وليدها في اليم؟ أي شيء ربط على قلبها؛ حتى امتثلت أمر ربها، فألقت بابنها في اليم راضية؟

**قال أبو الخير:** إن كنت تريد أن تقترب من القدرة والعناية التي تنزلت، فأغلق عينيك واترك قلبك - لا أقول يقلب صفحاتها - بل ليحلّق في ملكوت الله؛ ليتنسم نسائم العزّة، وليرتوي من أمزان الألطاف! وليرى من آيات ربّه الكبرى، إي وربي، إنها آيات من آياته الكبرى! وإن غُميت على من صرفت قلوبهم عن الله تعالى!

فلما استرسلت في تدبّر ما يجري أحسست كأن قلبي يطير في عوالم أخرى! وقلّبت وجهي في السماء، وقد اختفت عن ناظريّ ملامح الأرض العامرة بزخرفها وزينتها. والله باسط يديه بالرحمة، وأبواب السماء قد فتحت بماء السكينة منهمراً، وإذا عيون اليقين تتفجّر؛ لينبت القلب من كلّ زوج بهيج، وامتدّت فروع الرجاء في الآفاق بأكلٍ دائم كريم وظلال!

لقد كانت المسيرة من بيت أم موسى إلى قصر الملك ميسورة! تحصيها الأقدام عدّاً، ولكن من يجتازها حاملاً موسى حفيد إبراهيم عليه السلام، إلى بيت عدوّه فرعون؟ حيث العزّة والقوة والبطش؛ من يوصله سالماً غانماً ويؤويه؟

**قال أبو الخير:** لقد ألقت أم موسى بالتأبوت في اليم، وتولّى اليم بقيّة المهمة من غير حراس وبلا أجر! وذهب به إلى العدو القصوى من المدينة! حيث قصور فرعون ومملكته تجري من تحتها الأنهار! وتجي إليها الأموال، هنا الملك والجبروت، ومن هنا تصدر الأحكام الجائرة على بني إسرائيل، واليوم يفدّ الوليد المتعقّب إلى القصر ليس له مؤنس أو حارس من البشر؛ ليدخل قصر فرعون من أوسع أبوابه مكرّماً!

**قلت:** سبحان مالك الملك! من يستطيع أن يقهر فرعون؛ ليفتح قصره لعدوّه؟



قال أبو الخير: بل ويسكنه معه تحت سقف واحد؛ ليأكل معه على مائدته، ويركب على مراكبه الفارهة، وينفق عليه من خزائنه؟ من يستطيع أن يسخر فرعون! إنه الله الواحد القهار! ولا خيار لفرعون إلا أن يفتح صدره وقصره لهذا الوليد.

ها هو فرعون وجهًا لوجه مع عدوه، مقهورًا لا يقدر على دفع الشر عن نفسه! ما أصغر فرعون! وما أحقر كيده! إيه يا فرعون! ألسنتك تزعم أنك رب! فهلا قتلته أو سجنته!

لقد جرت الأحداث دون ضجيج، تلقى النيل المبارك التابوت؛ واحتضنه بحنان المحب المشتاق! حتى بلغ به قبالة قصر فرعون، فألقاه في الساحل سالما كما تلقاه، فرأته بعض جوارى القصر، فأعجبهن، فقلن: يا بشرى هذا غلام كريم! فأسرعن به إلى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، فأحبته حبًا جمًّا، ولما رآه فرعون استلطفه، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>1</sup>.

قلت: أبا الخير، أتدري ما أعجب ما يأخذ بلي وأنا أتابع مشاهد القصة؟ قال: لا. قلت: القوة المستعملة في إخضاع الرقاب الغلاظ؟ قال أبو الخير: أعني الملائكة؟ قلت: لا، بل قوة الحب! ﴿وَالْقَيْنُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾<sup>2</sup>! هذه هي الوسيلة التي قهرت فرعون، وكسرت عدوان الملأ!

مضينا نحو مدين، وإذا موسى مقبل، قد لقي من سفره نصبا ووصبا، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ \* فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ \* فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ \* قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ

<sup>1</sup> سورة القصص الآية (9)

<sup>2</sup> سورة طه الآية (39)

عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ \* قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ  
أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتُ فَلَا عُذْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ<sup>1</sup>.

قلت: أبا الخير، ما أكرم الله تعالى! لم يحنّ الليل على موسى إلا عروسًا، فقد جمع الله  
تعالى له الزوج، والمأوى، والأصهار الأخيار، وعقد عمل لعشرة أعوام!

كانت قرية مَدِين هادئة البال، تتقلب فيها الحياة على بساط البداوة، لا ترى فيها  
عَوَج المدنية ولا أُمَّتْهَا، وقد قضى موسى الأجل، وأوفى بالعقد، وتعلّم فيها كثيرًا من سنن  
الحياة، وحسن التدبير، وها قد بلغ أشدّه، وبلغ أربعين سنة، وهمّه فكّ القيود المضروبة على  
أمتّه، وهمّته تتأجج، أيترك قومه، ويؤثر السلامة، أم يركب الأهوال، ويغامر بالنفس والأهل؛  
ليدفع الشرّ بالخير، والباطل بالحقّ؛ حتى يفتح الله، وهو خير الفاتحين؛ كان المقصد عظيمًا،  
والخطر جسامًا، وأشواقه تناديه: لا بدّ من مصر، وإن طال السفر!

أي قوم، الحيا محياكم والممات مماتكم! أخذ يتهيأ للعودة إلى ديار مصر؛ فحزم  
أمتعته الزهيدة، ومضى بأهله، وكانت ثمة كرامة تنتظره بين مدين ومصر في الوادي المقدّس،  
وهو لا يدري! فسار العبد الصالح بأهله؛ حتى إذا أدركه الظلام بوحشته وصرّة (البرد)، آنس  
من جانب الطور (الجبل في كلام العرب) نارًا، فقال لأهله: امكثوا؛ ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ  
أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾<sup>2</sup>، فكانت غايته معرفة خير أو اقتباس جذوة! فقعدت  
المرأة مفوضة أمرها إلى الله تعالى، وقد أحدقت بها المخاوف على نفسها وزوجها، وغشيها من  
البرد ما غشيها، فضمت إليها متاعها، تتقي به، وتستدفئ، وأما موسى فمضى يشقّ الوادي  
تلقاء "النار".

قلت: أبا الخير، هلمّ نشهد الواقعة، فإن الأمر جدّ عظيم، فها هو موسى قد اقترب،  
﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى \* إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى \* وَأَنَا

<sup>1</sup> سورة القصص الآيات (23-28)

<sup>2</sup> سورة القصص الآية (29)

اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى \* إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي<sup>1</sup>، قلت: أَيْكَلِمَ اللَّهُ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ مُوسَى مِنْ فَوْقِ الْعَرْشِ، وَمُوسَى الْعَبْدُ الْفَقِيرُ عَلَى الْأَرْضِ! مَا أَجَلُّهُ وَمَا أَجْمَلُهُ مِنْ لِقَاءٍ، وَمَا أَجَلُّهُ وَمَا أَجْمَلُهُ مِنْ كَلَامٍ!

**قال أبو الخير:** إنها كلمات الله تعالى، وإن لكل كلمة ضلالاً ندية، فارتشف، وأنواراً بهيجة فاغترف، وجنى دانيّاً، فاقتطف، وأسراً مديدة، فارفع الحجب واستكشف، وريحاً زكيةً أطيب من ريح الجنة، لقد ارتقى موسى عليه السلام مقاماً عليّاً، وقربه الله نجيّاً، وصار رسولاً نبياً، ليت المرأة تعلم أيّ هدى أصاب زوجها؟ وأيّ بركة مسته! لقد أمست زوج رسول رب العالمين! وها هو يمدّه بالآية الكبرى، بل ويكرمه بأخيه هارون وزيراً.

لقد اختار الله تعالى عبده موسى عليه السلام؛ ليبدأ عهد تنمية شاملة رشيدة في أرض مصر؛ لإخراج أهلها جميعاً من الظلمات إلى النور، ومن الظلم إلى العدل والإحسان، ولا خيار لفرعون إلا اتباع موسى أو العذاب المهين في الدنيا والآخرة، وانقلبت موازين القوى، فأصبح موسى معصوماً مؤيَّداً من رب العالمين، ولم تعد المدافعة قومية بين بني إسرائيل المستضعفين وبين فرعون وملئه المستكبرين، بل تنمية ربانيّة رشيدة؛ لدفع الفساد العريض.

لقد رجع موسى عليه السلام بالهدى إلى زوجته، فسبقت نساء العالمين إلى الإيمان به، وتوجّهت لتلقاء مصر، وكانت خطاهما تطوي الطريق في سجلات مديدة من النور؛ لترفع إلى عليين.

انطلق موسى عليه السلام وانطلقنا، ولما بلغ مشارف المدينة التي أثقلتها أوزار المستكبرين، وأكل أوصالها الفساد، أشرقت جنباتها بنور الرسالة الموصولة بالسماء، وسرى دفء الحياة فيها كأنها عروس تزفت إلى محب كريم، مضى موسى عليه السلام إلى منازل قومه، تطلّعه عناية الله تعالى، أتذكر إذ خرجت خائفاً تترقب، وها أنت تدخلها بسلام تحمل لأهلها الأمن والإيمان! فسبحان الملك الحقّ، لِيَهْنِكَ الْخَيْرَ أَرْضَ مِصْرَ!

<sup>1</sup> سورة طه الآيات (11-14)

انطلق موسى وهارون عليهما السلام إلى قصر فرعون حيث تختزل حقوق أمة؛ لتلقى تحت قدمي فرد! وتقدم النفوس والأموال فدى له! وقرباناً إليه!

انطلقا كما أمرهما الله تعالى، ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ \* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَنذَرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾<sup>1</sup>، لقد ملأت هذه الكلمات قلبهما رجاء وطمعاً في إسلام فرعون! فلم يدخل عليه دخول المنتقم، المستخف! ويحك يا فرعون ما غرك برّبك الكريم! ما أوسع باب التوبة! وما أضيق أفق الإنسان الشارد!

دخلا دخول المتلطّف المشفق الطامع في الهداية، ووجداه قاعداً على سرير ملكه، وقد ارتدى رداء الكبرياء سفهاً، وشدّ عليه إزار العظمة جهلاً! ينادي فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾<sup>2</sup>، و﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾<sup>3</sup>!

فجعل ينظر إليهما بازدراء، وغضب يكاد يسطو بهما، قد ضرب الشيطان وبطانة السوء على بصره غشاوة الاستكبار، وأحاطوه بفقاعة قداسة عملاقة، فبادره موسى عليه السلام بكلمة الحقّ بالطف عبارة، قائلاً: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ \* حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾<sup>4</sup>.

أخذت كلمة الحقّ تشقّ كلّ الحجب؛ حتى بلغت فؤاد فرعون، فارتجف! وتصبّب عرقاً! وانفجرت فقاعة الربوبية الزائفة، وتمزّق لباس الزور، وهوت صفة القداسة التي يختبئ خلفها؛ لتصل كلمات الحقّ إلى مكانن الفطرة؛ لتعيده إلى أصله، ويلك! لست ربّاً يا فرعون! وفرعون يعرف حقيقة نفسه! لكن الشيطان لم يفلته، فأخذ يخوّفه بزوال ملكه إن آمن، ويحثّه؛ ليستجمع قواه؛ وليقول أيّ شيء! ف﴿قَالَ أَلَمْ نُزَيِّنْكَ فِينَا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ \* وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>5</sup>، فتطوّح في الردّ، وجاءت كلماته أشبه

<sup>1</sup> سورة طه الآيتان (43-44)

<sup>2</sup> سورة القصص الآية (38)

<sup>3</sup> سورة غافر الآية (29)

<sup>4</sup> سورة الأعراف الآيتان (104-105)

<sup>5</sup> سورة الشعراء الآيتان (18-19)

بكلمات المستعطف! ثم أخذ يستدرك ويجادل عن حقه في الربوبية، ﴿قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَى \* قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾<sup>1</sup>، فلما وقعت كلمات موسى عليه السلام موقعها، فكَرَّ فرعون في طيِّ المجادلة، و﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ \* وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾<sup>2</sup>.

هنا دسّ الشيطان في قلب فرعون الشبهة الخبيثة التي يلقيها أوليائه؛ إنه ساحر! فانتفض فرعون، و﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ \* يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ \* قَالُوا أَرْجِهْ وَأَحَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ \* يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾<sup>3</sup>.

**قال أبو الخير:** ما أكثر فقايع الزور التي تسجن الشياطين بني آدم فيها انتقاماً منهم! وما أيسر فقأها، والتحرّر منها!

**قلت:** إن الله تعالى إذا أراد تغيير ما بأمة وإصلاحها، هيأ لها قائد صدق؛ لتبدأ إعمار القلوب بالقيم الربّانية، واسترداد الحقوق الإنسانية!

خلّص فرعون نجياً بأكابر المجرمين، أيها الملاء، كيف الخلاص من هذا الكابوس الذي عكّر صفو سلطاننا؟ وزلزل أركانه، وداس قداستنا! قالوا: فلنعلن أن لدى موسى وهارون أطماعاً سياسية خفية! ولنبدأ بمواجهتهما بذلك، فأجمعوا أمرهم و﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>4</sup>.

**قال أبو الخير:** لقد أسفوا في سفاهتهم؛ حتى ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾<sup>5</sup>، ساحران يريدان إخراج الناس من

<sup>1</sup> سورة طه الآيتان (49-50)

<sup>2</sup> سورة الأعراف الآيات (106-108)

<sup>3</sup> سورة الشعراء الآيات (34-37)

<sup>4</sup> سورة يونس الآية (78)

<sup>5</sup> سورة طه الآية (63)

ديارهم، وإسقاط القيادة المثلى الرشيدة! (وطريقة القوم: سادتهم وأشرفهم)، إن هذا لشيء عجاب!

وأقبل السحرة رجالاً وركباناً من كلّ المدائن، وقد امتلأت أفئدتهم رغباً وطمعاً في عطاء فرعون، فأبان لهم خطر المكيدة التي يكيدها عليه موسى عليه السلام! ووعدهم عطاء يطفئ نار أجوافهم الطامعة، إن غلبوا موسى! فشرع السحرة يبنون قبة قداسة جديدة! وينفخون فقاعة الزور، ينادون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ﴾، بعزة فرعون! ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، فأحسن فرعون بالقداسة والكبرياء سيريان في نفسه! وأخذ يتلقف يمينة ويسرة مستكبراً، وقد أخذه الغرور كلّ مأخذ! وصاح: الآن حمي الوطيس!

وكانت الجماهير تشاهد الأحداث الجسام مذعورة! وموسى عليه السلام خائف يترقب! ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى \* فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾<sup>1</sup>. ما تفعل هذه العصا بهذه الحشود من العصي والحبال؟ لم يكُ يدري ما الذي ستفعله من العجائب وتحققه من المآرب!

وجاء الأمر من ربّ العالمين: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى \* وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾<sup>2</sup>، ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ \* فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ \* قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ \* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾<sup>3</sup>.

سقطت القبة فوق رأس فرعون! وذهبت أحلامه هباء منثوراً! ودخل السحرة في دين الله تعالى! ونفذت كلمة الحقّ إلى قلوب قوم فرعون وخاصته! فصعق فرعون ممّا رأى وسمع، وشثرت القوة الحشنة عن ساقها! فكشف عن وجهه الملطّخ بالوحشية والعدوان! ﴿قَالَ آمَنْتُمْ

<sup>1</sup> سورة طه الآيات (66-67)

<sup>2</sup> سورة طه الآيات (68-69)

<sup>3</sup> سورة الشعراء الآية (45-48)

لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ  
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى<sup>1</sup>.

**قال السحرة:** أَتَظُنُّ أَنَّكَ تَمْلِكُ حَقَّ تَصْرِيفِ الْقُلُوبِ! فَلَا إِيمَانَ إِلَّا بِإِذْنِ! ﴿لَنْ  
نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ  
الدُّنْيَا﴾<sup>2</sup>.

**قال أبو الخير:** كان ردّ السحرة آية أخرى! لقد شاهدوا الحقيقة! فشاهدوا بالحق،  
وتضاءلت كلّ قوى الظلم! فألقوا أغلال الاستعباد، واستردّوا كرامتهم، فكلّ عنيد جبار عندهم  
عدم! أُسْقِطَ في يدي فرعون، فلم يعد لقوته الخشنة ولا الناعمة تأثير، فقد طوى النور كلّ  
معالم الجاهلية.

**قلت:** أبا الخير، لقد كان إيمانهم لمن خلفهم آية! أهؤلاء هم رؤوس الدجاجلة المرتزقة  
الذين انحطت معالم الإنسانية فيهم إلى أسفل سافلين؟ كيف أصبحوا أئمة رشدي؟ وكيف  
امتألت قلوبهم بأنوار الهدى وأسرار البشرية في طرفة عين؟ هب أن أطماعهم في عطاء فرعون  
تخطّت! فأين ذهب الخوف؟

**قال أبو الخير:** إنه هدى الله يهدي به من يشاء! إنها رحمة الله، فالقلوب بين يديه  
يقبلها كيف يشاء، لقد تشرّفت البشرية بموقف هذه الثلة الصادقة التي قلّ نظيرها، فرفعت لواء  
الكرامة والحرية للناس أجمعين! ولا يكاد مؤمن يتدبّر قصّتهم إلا ويجد فيها أنسًا وأسوة!

**قلت أبا الخير:** إن هذا لشيء عجاب حقًّا، وأعجب منه أن ترى -اليوم- أحفاد  
المستضعفين من قوم موسى عليه السلام يسلكون سبيل فرعون "خَذُوا الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ"!

**قال أبو الخير:** سنة الاستبدال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾<sup>3</sup>، وقد اصطفى  
الله تعالى أحفاد قوم فرعون لحمل الرسالة الخاتمة؛ لتكون مصر كنانة الإسلام، وكنهه، داعية

<sup>1</sup> سورة طه الآية (71)

<sup>2</sup> سورة طه الآية (72)

<sup>3</sup> سورة محمد الآية (38)

الإسلام إلى قيام الساعة، اللهم احفظ سلام مصر وإسلامها، وسيادتها، وسؤدها، وسائر بلاد المسلمين، اللهم وارحم كل من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ -عليه الصلاة والسلام- نبياً.

نظرت إلى بيوت بني إسرائيل، وقد أُلقت المدينة زخرفها، وأدنت عليها من جلايب الظلام، وكأنها تستعد لتقلب بني إسرائيل إلى ديارهم، وأخذ بنو إسرائيل يحزمون أمتعتهم سراعاً.

**قال أبو الخير:** ألا ترى ما بالقوم من الهلع؟ يودّ أحدهم حمل داره فوق حماره! لقد أثقلوا ظهورهم بأوزار من زينة الحياة، والعدو يطلب دماءهم وأموالهم، وهو لاحق بهم لا محالة.

انطلق الناس يتخافتون بينهم، فلا تسمع إلا همساً، وكانت الدموع تشكو بثّها إلى الله، وتنثر آلام ظلم طويل!

**قلت:** الفراق عسير والبقاء خطير، ما أشدّ ظلم الجار! لقد استفزّهم فرعون من الأرض بخيله ورجله! ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ \* إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ \* وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ<sup>1</sup>. فتظاهروا عليهم بالإثم والعدوان؛ ليسلبوهم حق الحياة!

ولما بلغ بنو إسرائيل مشارف البحر، وكانت أمواجه تلوح إليهم بالبشرى، أخذوا يقلّبون أبصارهم؛ لعلّ فُلْكَاً تطلع عليهم كفلك نوح! فلم ترُعْهم إلا طلائع فرعون في الأفق، فأخذت النساء تصرخ، وتنوح! واكتنف الرجال فرعٌ شديد لا يدرون ما يصنعون، وبلغت القلوب الحناجر، وظنّوا أنهم مدركون! فالبهر من أمامهم وفرعون وجنوده من خلفهم! وبقي موسى عليه السلام منتظراً أمر ربه رابط الجأش مطمئناً، لا يخاف ظلماً ولا هضمًا، وداءه المرجفون يخوفونه، ف ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> سورة الشعراء الآية (53-55)

<sup>2</sup> سورة الشعراء الآية (62)



ثمّ انبعث بغتة، ومضى تلقاء البحر، والقوم شاخصون! قلت أبا الخير: ما ترى موسى صانعاً؟ فضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه! ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾<sup>1</sup>. قال أبو الخير: انظر، إن هذه لآية كبرى! أنى لعصاً أن تفلق بحراً؟ وأنى لماء أن ينشق، ويظل فرقاء معلقين في الهواء، كلّ فرقٍ كالطود العظيم!

اندفع قوم موسى عليه السلام من شدة الخوف يركضون في طريق يبس! ولما بلغوا الشاطئ المقابل، وقفوا ينظرون عاقبة القوم الظالمين، ولما شارف فرعون وجنوده حافة البحر، رأوا طريقاً يبساً في قاع البحر، والبحر مفلوق، وطرفاه معلقان على جانبي الطريق كالوحش المترقب فريسته! أدركهم الخوف!

قلت: أبا الخير، أتراهم يغررون بأنفسهم؟ قال: إنها سنة الاستدراج، إذا أحاطت بقوم احتنكتهم!

تلکأ بعضهم، فنادى فرعون أن أقدموا إنما هذا سحر! ثمّ أهوى في المنحدر، وتدافع الجيش من بين يديه ومن خلفه، وكانت الملائكة والروح في انتظارهم! فلما أدركوا في البحر جميعاً، أطبق عليهم اليمّ، فاستفاق فرعون من غفلته، وأعلن إسلامه! و﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾<sup>2</sup>.

وأخذ جبريل يدسّ من حَالِ البحر (الوَحْل) في فم فرعون؛ حتى إذا هلك فرعون قُذِفَ بجثته إلى ساحل البحر؛ ليكون لمن خلفه آية.

أقبلنا على الرجل وقد نزع الله عزّ وجلّ من بدنه الروح والجبروت! قال أبو الخير: صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.

<sup>1</sup> سورة الشعراء الآية (63)

<sup>2</sup> سورة يونس الآية (90)

قلت: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ \* وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ  
\* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ \* فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> سورة الدخان الآية (25-29)

مضيئنا نعبّر القرون؛ فإذا قرية قد تغشّت بنور القمر الناعم، وقد أسندت ظهرها إلى جدار السكون. وعلى مشارفها حَفْشٌ (بيت صغير) قد نبذته منها مكاناً قصيّا، وفي وسطه رجل قاعد قد يملأ الكون بناشئة ليله، اقتربنا منه، فهالنا ما تراءى لنا! جسد قد مرّقه الضرّ كلّ ممزق، قال أبو الخير: أمثل هذا الجسد يجود بهذا التعبّد؟ نعم العبد! تالله لا أبرح؛ حتى أحيط به حُبّاً. مكثنا غير بعيد، وإذا رجلان مقبلان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم، والله، لقد أذنب صاحبنا ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين! فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحم الله، فيكشف ما به، فلما راحا إليه، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال الرجل المبتلى: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أي كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حقّ، فانصرفا، وأقبلت امرأة تجرّ أقدامها ضعفاً، قد ذهب الأسى بملامح وجهها، وغشيتها من الحزن والهّم ما تشفق من حمله الجبال، فلما دنت صاح بها: أي هنتاه، لم تأخرت، أم تراك بدلت! قالت: مهلاً ابن عمّ! ما بدلت، ولكن لم أجد ما أغيثك به، فبحثت؛ حتى عييت، ثمّ تولّيت عنه تفيض عينها من الدمع، وتشكو حزنها وبتّها إلى الله، فما لبثت إلا قليلاً؛ حتى نادها، فأقبلت عليه، فأمسكت بيده؛ حتى بلغت به مكان قضاء حاجته، فلما تولت عنه، رفع يده إلى السماء، و"نادى ربّه: أي مسني الضرّ وأنت أرحم الراحمين".

فأوحى الله إليه: "ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ"، فشرب واغتسل، فاستبّطأته، فتوجّهت إليه، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، فهو أحسن ما كان، فلما رآته، قالت: أي! بارك الله فيك! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ والله، ما رأيته أحداً كان أشبه به منك إذ كان صحيحاً! قال: فإنّي أنا هو، وكان لأيوب عليه السلام بيدران: بيدر للقمح، وبيدر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على بيدر القمح؛ أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى على بيدر الشعير الورق حتى فاض<sup>1</sup>. فلما رأى أبو الخير ما رأى، التفت إليّ، فقرأ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

<sup>1</sup> حديث إفراغ السحابتين ذهباً وفضة: صحّحه: الحاكم ووافقه الذهبي، وصحّحه من المعاصرين الألباني والأرنؤوط، وورد في صحيح البخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم: "بَيْنَا أَيُّوبُ يُغْتَسِلُ غُرْبَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَخْتَبِي فِي نَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيْكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى وَعَزَيْتَكَ وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ". ولا أقول: انتظروا أن تمطر السماء عليكم ذهباً وفضة خرقاً للسنن، بل اعملوا بالأسباب، وأبشروا.

الرَّاحِمِينَ \* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى  
لِلْعَابِدِينَ ﴿٢٠﴾.

قال أبو الخير: أتمطر السماء ذهبًا وفضة؟ قلت: بل وينزل منها أكبر من ذلك: مغفرة ورضوان!

انطلقنا نحمل عظام أمثال الجبال؛ حتى دخلنا نينوى، وإذا قرية آمنة ناعمة يعمرها  
مائة ألف أو يزيدون، يتقلبون في الشرك.

قال يونس - عليه السلام - يا قوم، اعبدوا الله، واستغفروه، يمتعكم متاعاً حسناً إلى  
حين، ولا تشركوا به شيئاً، فيذيقكم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، فقالوا: ما أنت إلا ساحر  
أو مجنون، ثم تولّوا عنه مدبرين، ومضت السنون فما استجاب له منهم أحد، وما ظفر منهم  
بوزير يشدّ به أزره، ويؤنسه في غربته، وما أوحش الحياة بلا رفيق صالح!

كان معلّم الخير يونس - عليه السلام - يعلم أنه وإن لم يؤمن به أحد، فإن كلّ دابة  
في السماوات والأرض تستغفر له، وتصلّي عليه؛ فيستشعر أصوات المستغفرين ترتفع من كلّ  
مكان، من أفواه الطير فوق الأشجار، ومن الساريات في البحار والأنهار، حتى النملة في  
جحرها تستغفر له! فيغتبط ويأنس.

واقترب أجل القوم، فأعلمه الله تعالى به، فحدّثهم، وأنذره، فسخرّوا منه، فتولّى  
عنهم، وقد امتلأ قلبه غيظاً عليهم، فأغلق باب الدعوة دونهم قبل أوانه، وطوى صحف الهدى  
قبل أن يأذن الله له، وذهب مغاضباً.

وها هو يصل شاطئ البحر، ويركب في فلك مشحون، فجرت السفينة بهم بريح  
طيبة، وفجأة هاجت الأمواج من كلّ مكان، فأخذ يونس - عليه السلام - يتهلّل، وفي صدره  
قلب نبيّ عامر بحبّ الله، وأحاط الكرب بالسفينة، فاقترعوا، وخرجت القرعة على يونس -  
عليه السلام - فاستكان لرّبه واستغفر وتضرّع؛ لعلّ رحمة الله تعالى أن تداركه! فحملوه، وألقوه  
في البحر، وهو متشبّث بعروة التوبة.

التقمه الحوت ومضى به، وكانت ثمة وشيجة أنسٍ شريفة تربط هذا الحوت بيونس،  
فما أكثر ما استغفر هذا الحوت ليونس وهو ناءٍ عنه! وها هو اليوم يحمل رسول الله في بطنه،  
وقلبه بجوار قلبه! يُسبّحان معاً ويستغفران معاً وكلّ في فلكه سابح!

كان يونس يناجي ربّه وولّيّه في الظلمات، وقد أطبقت عليه المهالك أجفانها، فهو  
مكظوم، ولم يبق إلا الاسم الأعظم، والكنف الأكرم، فغاب في كلماته، ولهج بها لهجاً لا يني،

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ \* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ<sup>1</sup>، وقد ملأ الاسم الأعظم بجلاله، وعظمته، وجماله كل أقطار قلبه؛ حتى لا يرى شيئاً غير الله.

كانت رحلة بلاء مديدة، وكانت أطاف الاستغفار تحوط قلب يونس بجناها وأنسها، وكان الرجاء ييث روح الحياة الجديدة! وأمر الله تعالى الحوت، فنبذه فجأة في العراء غير مدموم، وأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين تظله وتقيه، واجتباها، وكساه من لطفه ونعمه ما كساه.

وفي قرية نينوى كانت ساعة العذاب تدنو، فشخصت الأبصار، وإذا الأفعدة هواء، وخرج القوم يبحثون عن يونس؛ ليتوسلوا به إلى الله تعالى؛ ليكشف عنهم عذاب الخزي، فلما استيأسوا من الوصول إليه، خلص سادتهم نجياً، فقال أحدهم: قد وقعت على عروة النجاة، فادعوا الناس جميعاً، فنادى المنادي يا قوم، هلم إلى النجاة! فأقبلوا مهطعين إلى الداع مقتعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم.

فلما حضروا، أنصتوا، فقال الداعي: يا قوم، إن أضعنا رسولنا، فإننا قد عرفنا ربنا الذي أرسله، وهو يسمعنا ويرانا، وعرفنا الطريق إليه، فقوموا إلى الله الواحد القهار، فاستغفروه، وادعوه مخلصين له الدين، فشرح الله تعالى صدورهم جميعاً للإيمان، وكشف عنهم العذاب، وغشيتهم الرحمت، وعمتتهم فرحة النجاة، وهطلت عليهم شآبيب البركات.

وعادت العافية إلى يونس -عليه السلام- محملة بالعبير والعظات، فردّه الله تعالى إلى قومه نبياً ورسولاً؛ ليزيده شرفاً ورفعته، فلما رآه قومه مقبلاً، فرحوا به، واستقبلوه بقلوب عامرة بالحب والإيمان، فتتابعت السنون سماناً، ونزل الغيث مدراراً، وفتحت الأرض خزائنها.

**قلت: أبا الخير، ما أعجب قصّة القوم! دعاهم رسولهم سنين عدداً، فأعرضوا، ولم يؤمن منهم أحد، فلما ذهب مغاضباً قبل أن يأذن الله تعالى له، وظنّ أنهم مهلكون، جعلهم الله آية للعالمين، فدخلوا جميعاً في دين الله تعالى؛ ليعلم الناس أن الهداية بيد الله تعالى وحده،**

<sup>1</sup> سورة الأنبياء الآيات (87-88)

قال أبو الخير: قد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾<sup>1</sup>.

هَوَيْنَا سَرَاعًا نَحْوَ أُمِّ الْقُرَى، فأوحشني ما رأيت! كاد قلبي يتفطر أسى! قلت أبا الخير: ما بال وجه مكة كاسفًا؟ قال: ألا ترى هذه النُصُب؟ قلت: بلى، لقد أعمت الجاهلية أبصارهم، وغشيت قلوبهم، وفجأة شع نور عظيم من جبل حراء، غمر الكون، ومزق حجب الظلمات كل ممزق، وإذا مكة مبتهجة تبرق أسارير وجهها.

وإذا جبريل -عليه السلام- يقول لمحمد -عليه الصلاة والسلام- "اقرأ"، فيقول محمد: "ما أنا بقارئ" فقال جبريل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾<sup>2</sup>، انطلق محمد -عليه الصلاة والسلام- يرشد للعالمين، يسارع بهم إلى مغفرة من ربهم، وجنة عرضها السماوات والأرض.

أقبل رسول الله -عليه الصلاة والسلام- على القوم؛ تحفه شمائله الكريمة، وتظله رحمة من الله واسعة. أقبل رسول الله، على قريش، وهم في غيهم يعمهون، ونادى: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ \* وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مِّنْ ذُنُوبِهِمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾<sup>3</sup>، فقال له عُثْلٌ من المشركين: يا محمد، قد سقمت آهتنا، وجعلت حسناتنا ذنوبًا، ومحاسننا عيوبًا، إن أنت إلا مفتر، وإذا كفارٌ عنيد يُقبل ويُدبر، فقال: يا قوم، إن هذا إلا ساحر!

فلما تطوحت بهم السفاهة، تولى رسول الله عنهم؛ خشية أن تدركهم سنة الأولين، فيسحتهم الله بعذاب. واشتد الأذى، وكانت الأيام حبلَى بحوادث جسام تكاد تغير مجرى الحياة في مكة وما حولها.

<sup>1</sup> سورة الأنبياء الآيات (98)

<sup>2</sup> سورة العلق الآيات (1-5)

<sup>3</sup> سورة هود الآيات (2-3)

خرج رسول الله داعيًا إلى الطائف؛ لعلّه يجد أفئدة من الناس تهوي إلى الحقّ، فلم يجبه إلى ما أراد أحد غير عدّاس، فانطلق في فُلْك الدعوة يشقّ طريقه في يومٍ همّ عاصف، فلم يستفق إلا بقرن الثعالب.

رفع الرسول رأسه فإذا هو بسحابة قد أظلمته ملئت عزّة ونصرًا، وإذا فيها جبريل عليه السلام، فقال: "إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم، قال: فنناداني ملك الجبال وسلم علي. ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك؛ لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً"<sup>1</sup>.

خرقت كلمات الرجاء الحُجُب؛ وامتدّت في رحم الغيب إلى زمنٍ تنبض فيه القلوب بسرّ النجاة! رويدك لا تطبق الأخشبين! وكان رسول الله يهيئ مكة؛ لتضمّ القرى إلى صدرها، ويصنع من أهلها منارًا للقادمين.

خرج رسول الله نحر الظهيرة؛ ليزور أبا بكر، صاحب الرسول الأكرم، فاستأذن، ثم قال: قد أذن الله لي في الخروج، قال أبو بكر: فالصحبة الصعبة، يا رسول الله. فقال رسول الله: نعم<sup>2</sup>، وامتدّ جسر النور والتمكين بين مكة والمدينة، واستقرّت فوقه كلمة الله عالية، وهوت تحته كلمة الذين كفروا.

كانت الشمس تَضَيّف للغروب (تميل إليه)، تطوي بُسْطُهَا الذهبية عجلي، ونحن نشتدّ في الجبل الوعر، والمرتقى الصّعب، فلما بلغنا قمّة الجبل، إذا نحن قبالة غار بين الصخور.

<sup>1</sup> البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ترقيم فتح الباري، دار الشعب - القاهرة، ط1، 1987م، ح 3229، ومسلم، مسلم

ابن الحجاج، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ح 111

<sup>2</sup> انظر: البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، حسب ترقيم فتح الباري، دار الشعب - القاهرة، ط1، 1987م، كتاب اللباس،

باب العمائم، ج 7/ 187 ح 5807



**قال أبو الخير:** على هذه القمّة قال محمّد -صلى الله عليه وسلم- لصاحبه: ﴿لَا

تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾؛ لأنه كان حزينًا أن يؤذى رسول الله أو أن تحرم البشرية هذا الخير والنور!

قلت: نعم، في هذا الموطن اختفت الأسباب الظاهرة، وانقطع كلّ حبل أمل بالنجاة! وقد شارفت سيوف الشرك أن تتناوش غايتها؛ لتطفئ نور الله! ولكن هيهات هيهات! فقد نصره الله! ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>1</sup>، إنها حقيقة خالدة تخضع لها أعناق القلوب، وكان رسول الله أوثق ما يكون بالنصر؛ لأنه يعلم أن الله ناصره.

ابتهجت المدينة وازيّنت؛ وفرشت مهجتها لصاحب الرسالة، واجتمع الصادقون المستغفرون بالأسحار تحت راية الحق، وانطلقوا يزرعون الأرض عدلاً وإحساناً، وامتأ صدر مكة المكرمة شوقاً إليهم.

ونادى منادي رسول الله، يا قوم، انفروا خفافاً وثقالاً، فانبعثوا طاعة لله تعالى وطاعة لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ومضوا تلقاء مكة.

دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة، فأسلمت رايتها إليه، وجعل يطعن الأصنام بمخصرة في يده، نعم، لم يكن بيده غير مخصرة، تنهاوى تحتها الأصنام، فسقطت غيبة الجاهليّة، وطهرها الله تعالى للعابدين، فكان النصر مكيناً، والفتح مبيناً، وتسابق الناس إلى مغفرة من ربهم وجنة، ودنا موعد اللقاء الكبير، وناداه ربّه -عزّ وجلّ- "فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ". فكان سرّ الختام، وزاد العروج إلى عالم الغيب، وحام طائر "اليقين" فوق المدينة، ودوم، وكان يوم الوداع ثقيلاً، وانقلب إلى ربّه، وقد وثّى بما عاهد إليه به.

خرجنا من مكة، وهي تؤمّ القرى، مررنا بعصورنا الزاهرة تفيض رَوْحاً وعزّاً، عبرنا فوق فتن غلاظ، وجدنا جزيرة العرب كما فطرها الله كريمة، رابطة الجأش، تضمّد أطرافها المشخنة بالجراح، وكانت أبواب السماء فوقها مكتظة بأصوات المستغفرين، وسحب الألفاف تنزل

<sup>1</sup> سورة التوبة الآية (40)

مدرارة، تُزجي السيول الثقال في أوديتها، وخلف السيول تتفجر الأنهار والعيون، وترفل المروج  
والجَنّات في سهول الجزيرة ووديانها، وكان الزّبد العابت فوق ظهر السيول يختال منتفشًا،  
والسيول ماضية تسوق الرمال نحو مضاجعها في شواطئ البحر.

مدّ طائر "الكويل" صوته مسبّحًا، وكان السحر يودّع المدينة المؤصدة، وينثر بركاته في سحاء.



